

الفصل الرابع عشر

معاهدة كوتاهية

لما منح محمد علي إبراهيم السلطة التامة لوضع شروط الصلح ، كان يعلم حق العلم آراء ولده التي شرحها شرحا وافيا في خطابه المؤرخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٣ ، والذي يقول فيه :

« لاشك في أن الغرض الذي ترمى إليه بعثة الجنرال مورايف و خليل باشا ، هو تحديد شروط الصلح ؛ ولما كان مصير مصر ومستقبلها معلقين على الموقف الذي تقفونه من هذه البعثة ، فإني أرى من الواجب على نفسي ، ولما أدين به من عواطف الولاء والإخلاص لذاتكم الجليلة ، أن أعرض بكل خضوع آرائي في الموقف الحالي ؛ وإن كنت أعلم حق العلم أنكم قد أوتيتم من الحكمة ما يجعلكم في غنى عن آراء غيركم من الناس » .

وبعد أن أدى بهذه المقدمة واجبه نحو والده قال :

« والآن يلوح لي أن أول الموضوعات التي يجب أن تطرح على بساط البحث وتسوى بينكم وبين المتفاوضين ، موضوع الاستقلال . ذلك بأن الاستقلال هو المسألة التي لا تعاد لها في نظرنا مسألة أخرى . ويجب علينا بعد ذلك أن نطالب بالمناطق الثلاث أضاليا وعلائية وكليسيا^(١) وجزيرة قبرص ، وعلينا أيضاً أن نضم إلى مصر بلاد تونس و طرابلس إذا استطعنا » .

(١) تقع هذه المناطق الثلاث في جنوب بلاد الأناضول وتطل على البحر الأبيض المتوسط فكليسيا جهة الشرق مجاورة لسوريا وتليها علائية إلى الغرب وبها مدينة صغيرة بهذا الاسم =

وبعد أن ذكر مطالبه شرع يؤيدها فقال :

« هذا هو الحد الأدنى لمطالبنا ، ويجب أن لا نزل عن شيء منها لأن مصالحنا تتطلب الاستمسك بها ؛ فأما استقلالنا فيجب أن نصر عليه ولا نتحول عنه قيد شعرة ، وعلينا أن نقوى مركزنا ونفكر في المستقبل . . .

« وأما أضراليا وعلائية وكليكيما فيجب التمسك بها لأننا في حاجة إلى غاباتها ، لنتخذ منها الأخشاب اللازمة لبحريتنا . وقد عرقتم أننا لما منعت إنجلترا تصدير الخشب لجأنا إلى النمسا فلم يفدنا ذلك شيئاً ، إذ رفض طلبنا ووقع هذا الرفض من نفوسنا وقعاً مؤلماً لا يمحى أثره أبد الدهر . وهل يشك أحد في أن مصر في أشد الحاجة إلى قدر وافر من الخشب ؟ وأما قبرص فلا بد لنا منها لنجعلها قاعدة بحرية لأسطولنا ، ولنمنع بها الباب العالي من الوصول إلى شواطئنا .

« فهل تسمحون لي بأن أقدم إليكم بكل إجلال فألفت أنظاركم الكريمة إلى هذه المسائل ؟ »^(١) .

هذا خطاب لا يمليه إلا خيال رجل سياسى ، وهو دليل على أن محمداً علياً كما قلنا من قبل كان يعرف بالضبط ما يفعل حين أناب عنه إبراهيم في المفاوضة . وقد شعرت وزارة الخارجية الفرنسية بمعنى هذه الإجابة كما شعرت بها لندن . ولربما كان روسن قد تخيل في السفير البريطاني « شعورا يشبه الخمول » لما ذاع

= واقعة على رأس بارز في البحر . وتلى هذه منطقة أضراليا وبها مدينة بهذا الاسم واقعة على منحدرات تل يشرف على خليج أضراليا ؛ وبيوتها وشوارعها يعلو بعضها بعضاً على سفح التل على شكل دوائر تشبه المدرج . وتقع جزيرة قبرص في البحر تجاه هذه المناطق الثلاث وقد سماها المؤنث أناضوليا ولاشك في أن أضراليا هي المقصودة بالذات لأن لفظ أناضوليا أو الأناضول يطلق على جميع آسيا الصغرى وليس ذلك بالطبع هو ما كان يقصده إبراهيم . (المغرب)

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

خبر قدوم الأسطول الروسى إلى البسفور ؛ ولكن الحكومة البريطانية لاتدع للحيرة والارتباك سبيلاً إلى نفسها . ولربما كانت صورة الإدارة الدبلوماسية في إنجلترا هي التى كانت ماثلة في عقل پوپ Pope^(١) حين قال : إن ما يظنه الناس أغلاطاً هو في الواقع خطط مدبرة ؛ فليس هومر بغافل ولكننا نحن الواهون .

وتبعاً لهذه القاعدة أصدرت الأوامر إلى قائد الأسطول البريطانى في البحر الأبيض المتوسط بأن يتصل بالقنصل البريطانى العام في الإسكندرية ، وأن يستعد لإزالة قوة من البحارة إلى البر إذا تطلبت ذلك المصالح البريطانية^(٢) . ورأت وزارة الخارجية الفرنسية أن من الحكمة أن لا تجعل لأمير البحر روسن الإشراف على العلاقات الدبلوماسية ، لأن هذه العلاقات لا يصلح للإشراف عليها بحار فقط ، بل تحتاج إلى ظرف الرجل الفائن الخلاب . ولذلك شعر ده بروجلى بحاجته إلى القيام بعمل حاسم ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن يرغب في إبعاد روسن لثلاثىء روسيا والباب العالى فهم هذا العمل ، وقد يسيء فهمه أيضاً محمد على . فهداه تفكيره إلى أن يرسل من قبله مندوباً خاصاً إلى بلاد الشرق الأدنى . وتطالب اختيار هذا المندوب غير قليل من التفكير والأناة ؛ لأن وزير الخارجية الفرنسية كان في حاجة إلى رجل ناضج الفكر ، سريع البت ، كيساً لبقاً في جميع الأحوال ؛ وكان لابد مع ذلك أن يقع الاختيار على شاب لا يبدو لصغر سنه كأنه سفير ، ولكن له من العقل ما يمكنه من إصلاح الخطأ الذى ارتكبه بحار في لباس سفير .

(١) الكسندر پوپ شاعر إنجليزى شهير عاش في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ومن أعماله أنه ترجم الياذة هومبوس إلى اللغة الإنجليزية . (المغرب)
(٢) صورة سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر في سنة ١٨٣٣ محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة رقم ٣٩ .

وقد رأى شارل جوزف إدمند Charles Joseph Edmond بارون ده بوالسكونت Baron de Boislécomte موضعاً لثقتة ، فاختره لهذا المنصب . ولد البارون في سنة ١٧٩٦ وعرف دخائل الدوائر الدبلوماسية وأسرارها في مؤتمر ويانه Vienna ، وكان تلران Talleryrand هو الأشبهين الروحي لهذا الشاب . وقد أرسله ده برجلي إلى الآستانة والإسكندرية مزوداً بتعليقات مؤرخة ٨ إبريل سنة ١٨٣٣^(١) . وهي جديرة بأن يطلع عليها القراء ، لكننا لا نريد أن نحلل محتوياتها ، لأن روسن جعل السفارة الفرنسية في ذلك الوقت قبلة الأنظار وموضع الاهتمام . وقد سبق القول إن الباب العالي أبلغه أن الأوامر صدرت إلى الأسطول الروسي بمغادرة المياه التركية ، وأنه ينتظر اعتدال الرياح لينفذ تلك الأوامر . ولكنه عاد فأبلغه في ٢٣ مارس سنة ١٨٣٣ أنه « لا يستطيع أن يرفض تدخل الروس في الأمر ، ويخرج أسطولهم من المياه التركية ، إلا بعد أن يتأكد أن إبراهيم سينسحب من الأراضي التي لم يتدخل له عنها الأتراك »^(٢) . ولما رأى روسن هذا التحول من جانب الأتراك ، سعى ليقنعهم بأن في مقدور إبراهيم أن يدمر الأسطول الروسي تدميراً ؛ وقال لهم إنهم لا يستطيعون أن يقاوموا الجيش المصري بأقل من أربعين ألف مقاتل ، وإن الروسيين لن يصلوا إليهم إلا بعد أربعين أو خمسة وأربعين يوماً^(٣) :

وأعجب السلطان ومستشاروه بهذا المنطق ، لأنهم تبينوا فيه الصدق ؛ فلما اقتنع الباب العالي بما فيه من قوة ، ولى وجهه مرة أخرى نحو فرنسا ورجا السفير

(١) بوالسكونت تأليف دون ص ٣٩ من المقدمة .

(٢) المصدر عينه ص ٤٦ من المقدمة .

(٣) المصدر عينه ص ٤٩ من المقدمة .

أن يخبره بما يجب عليه أن يتخلى عنه لمحمد علي ؛ فعل ذلك في ٢٩ مارس سنة ١٨٣٣ قبل أن يتلقى بوالسكنت تعليقه النهائية .

واعتقد السفير الفرنسي أنه إذا بادر إلى العمل من ساعته ، استطاع أن يقرر مصير الدولة العثمانية قبل وصول المندوب الخاص . وكان يعهد في ده ثرن القدرة وأصالة الرأي والإخلاص والوطنية والصبر وسعة الخيلة ، ولذلك أقنع الرئيس أفندي بأن يدون له شروط الصلح . ولما كتبها وقرر فيها أن السلطان يرضى بأن يتخلى عن جميع بلاد الشام لمحمد علي ، بعث ده ثرن مسرعا إلى معسكر إبراهيم في ٣٠ مارس سنة ١٨٣٣ ، وزوده بتعليمات شفوية أوصاه فيها أن يعرف أقل ما يرضى به القائد المصري ، إذا كانت الشروط المعروضة عليه لا ترضيه ، وكانت أوامر أبيه تحتم عليه أن لا يكتفى بها ^(١) .

وبعد خمسة أيام من سفر ده ثرن وصل قسم آخر من الأسطول الروسي إلى مياه القرن الذهبي ؛ فتعقدت الأمور بسبب مجيئه فوق تعقدها الأول . وبينما كان روسن يظن أنه استطاع أن يجد مخرجاً من هذه الورطة الجديدة ، إذا بده ثرن يعود من مركز القيادة المصرية ليبلغه أن إبراهيم مستعد للانزول عن بعض مطالبه ، لكنه لا يرضى بالتخلي عن أطنه . وكتب روسن إلى وزيره وأمامه مذكرة ده ثرن يقول : « وعلى ذلك فقد تخلى الباب العالي عن بلاد الشام ، ولكنه لا يستطيع أن يسلم في أطنه ، لأن الباشا إذا استولى عليها استحوذ على ثروة غابات كرمانيا ، وسيطر على ممرات جبال طوروس ، وعلى الطريق المؤدى إلى الآستانة . ولكن إبراهيم مع إصراره على امتلاك أطنه ، بدأ يسحب قواته ،

(١) المصدر عينه ص ٥٠ من المقدمة .

ولذلك أشرت الآن على السلطان أن يصدر فرماناً يؤكد فيه نزوله عن هذه الأراضي التي تخلى عنها لإبراهيم^(١) .

ولا شك في أن السفير الفرنسي شعر بأن ده قرن مساعده القدير الصبور قد حل المسألة كلها قبل وصول بوالكنت . ولربما كان ده قرن محققاً في ظنه أن العقدة قد حلت قبل أن يبدأ المندوب الجديد عمله ؛ ولكن الفضل في هذا الحل لم يكن راجعاً لده قرن وقوة حجته ، بل إلى الأوامر التي أصدرها محمد علي ، وهي أوامر أوحى بها احترامه لقوة الأسطول البريطاني الفعالة ، لا اقتناعه بمنطق الدبلوماسية . وذلك أن وزارة الخارجية — كما قلنا من قبل — قررت أن يكون أسطول البحر الأبيض المتوسط رهن إشارة القنصل البريطاني العام بالإسكندرية . ولسنا نعلم علم اليقين متى حبا الملك الكولونل كامبل Colonel Campbell بهذه الثقة ، ولكننا نعرف عن ثقة أن القنصلية البريطانية العامة قدمت في اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٣٣ إلى ناظر الخارجية المصرية بوغوص يوسفیان^(٢) بك مذكرة شفوية جاء فيها ما يأتي :

« إن الحالة السائدة في شرق البحر الأبيض المتوسط تحتم على الحكومة أن تعزز الأسطول البريطاني في هذا البحر ، وأن تأمره بالرجوع إلى ميناء الإسكندرية ،

(١) المصدر عنه ص ٥٥ من المقدمة .

(٢) بوغوص بك يوسفیان (١٧٦٨ — ١٨٤٤) مدير الأمور التجارية والشؤون الخارجية في أيام محمد علي باشا . ولد في أزمير وأحسن والده تعليمه ، فتعلم عدة لغات هي الأرمنية والتركية واليونانية والإيطالية والفرنسية . وكان يتقن اللغة الأخيرة حديثاً وكتابة . ولما نظم محمد علي شؤون الحكومة على النمط الحديث ، ونق به كل الثقة وعهد إليه بالإشراف على أعماله التجارية والشؤون الخارجية ، فظل يشرف عليها نحو عشرين عاماً حتى توفي في عام ١٨٤٤ في الثانية والسبعين من عمره . ويكتب اسمه أحياناً (باغوص) بالألف ولكن علمنا أن خاتمه قد نقش عليه اسمه بالواو . وقد سماه المؤلف بوغوص بوصروف ، ولكن حقيقة اسمه هو بوغوص يوسفیان . (المعرب)

ليرقب سير المفاوضات المنتظرة بين سمو الباشا ومندوب الباب العالي .
 « فإذا وجد قائد الأسطول عند قدومه إلى الإسكندرية أن الطرفين قد
 وصلا إلى اتفاق نهائى ، وأن وجود الأسطول البريطانى أصبح لا ضرورة له ،
 فسوف يتبع الأوامر التى لديه . أما إذا عرف أن المفاوضات لم تبدأ بعد ، فإنه
 سيقدم للكلونل كامبل ما يستطيع تقديمه إليه من المعونة . وقد وصلت إلى يد
 الكلونل كامبل التعليمات التى صدرت إليه فى هذا الموضوع .

« وإنا نرجو أن يكون ما لبريطانيا العظمى وحلفائها من النفوذ الأدبى ،
 وما يعرفه الباشا من أن الدول الكبرى لا تسمح بتجزئة الدولة العثمانية ، نرجو
 أن يكون ذلك كافياً لإقناع محمد على بقبول ما يعرض عليه من الشروط المعقولة .
 أما إذا لم تصل المفاوضات إلى نتيجة نهائية ، فإن أمير الأسطول قد أذن له
 أن يمنع كل اتصال بالبر أو بالبحرين مصر وجيش إبراهيم ، حتى يصل الطرفان
 إلى اتفاق يرتضيه ، كما أنه سيمنع أيضاً البوارج الحربية المصرية ، وكل السفن
 التى تحمل الراية المصرية ، من مغادرة الإسكندرية ، إذا كان على ظهرها جنود
 أو ذخائر حربية »^(١) .

وفى اليوم السابع من مايو سنة ١٨٣٣ أجابه بوغوص بك يوسفان بما يأتى :
 « قد اطلع سمو مولاي الوالى على ترجمة تعليماتكم وعرف المقصود منها . ولما
 كانت هذه الأوامر تتعلق بفصل من تاريخ مصر قد انتهى الآن ، فليس ثمة
 ما يدعو إلى النظر فيها . ذلك بأن الباب العالي قد منحه باشوية الشام ومماحقاتها ،
 وقد تلقى فرمانات التى تؤيد ذلك »^(٢) .

(١) صور سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى عام ١٨٣٣ المحفوظة

بدار الكتب المصرية بالقاهرة الوثيقة رقم ٣٩ .

(٢) المصدر عينه وثيقة رقم ٤١ .

وليس في استطاعتنا أن نعرف السبب الذي دعا القنصل البريطاني العام إلى البحث مع ناظر خارجية محمد علي في ٥ مايو في هذا الموضوع . ولسنا نشك في صحة التاريخ الذي ذكرناه هنا ، لأن الذي أمامنا الآن ونحن نكتب هذه السطور هو النص الأصلي لهذه المذكرة الشفوية ، لا صورة مطبوعة منها . على أننا نعلم أن بوالسنت قدم إلى الإسكندرية في ٢٩ أبريل سنة ١٨٣٣ ، وقت أن كانت المدافع تطلق معلنة نبأ التصديق على شروط الصالح^(١) . ويقول صبرى وهو من الثقة الذين لا يخطئون في ذكر الحقائق التاريخية ، أن الآستانة لم توافق على شروط الصالح بصفة رسمية قبل اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٨٣٣ ، وأما الكونت فون بروكش أستن Prokesch-Osten ، الذي أرسله مترنيخ ليضغط على محمد علي ، فقد وصل إلى الإسكندرية في ٣ أبريل من تلك السنة^(٢) .

وأكبر ظننا أن المستر كامبل القنصل البريطاني العام أنبأ الباشا بمعنى الأوامر الصادرة إليه بطريقة غير رسمية ، وأن محيى المندوب النمساوى حملة على تقديم المذكرة الرسمية فيما بعد . ولما كان دوى المدافع لأهمية له في نظر الموظف الدبلوماسى ، فقد أبى أن يعترف بأن الحرب قد خمدت نارها ، إلا إذا ثبت له ذلك بالدليل الكتابى . ولما كان يعرف أن الضغط البريطانى هو الذى ألان عريكة محمد علي ، فقد أجمع أن لا يمكن النمساويين من أن يستثمروا شروط الصالح لمآربهم السياسية . هذا هو ما نفسر به ذلك اللبس في التاريخ ، وللقارئ أن يقبله إذا شاء أو يرفضه . ومهما يكن ذلك فإن أمرا واحدا لا يمكن الشك فيه ، ذلك أن الذى ألان شكيمة محمد علي لم يكن منطق ده قرن وقوة حجته ؛

(١) بوالسنت تأليف دون ص ٥٠ من المقدمة .

(٢) « محمد علي والى مصر من مذكراتى اليومية » للكونت فون بروكش أستن طبع

في وبانة سنة ١٨٧٧ ص ٣٩ .

ودليلنا على هذا أن رسول روسن لم يغادر الآستانة إلى مقر القيادة المصرية إلا في ٣٠ إبريل سنة ١٨٣٣ ، وأن دوى المدافع يرجع تاريخه إلى اليوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر^(١) .

وبينما كان الرجال الدبلوماسيون في الشرق الأدنى يتفنونون في تدبير الحيل ، ويسعى كل منهم ليكون هو الظافر بنشر لواء السلام ، فإن المعاهدة التي أثمرتها جهودهم لم يرض عنها أحد . فأما السلطان فلأن والياً صخاباً من ولاته قد أذاقه ذل الهزيمة . وأما محمد علي فلأنه لم ينل الاستقلال (الذي كان يطمح إليه إبراهيم) ولم يعترف بحق جعل باشوية مصر وراثية في عقبه ، ولم يصبح صاحب الأمر والنهي في الآستانة . وغضبت الروسية لأن القيصر لم يقو مركزه لدى الباب العالي . وساء الدول الغربية أن بطرسبرج أصبحت صاحبة الكلمة الراجحة في شؤون الدولة العثمانية . ولكن معاهدة كوتاهية كانت في حقيقةتها نصراً أدبيا لمحمد علي رغم كل ما فيها من العيوب . وقد خلص صبرى ما تنطوى عليه من المعاني بقوله :

« يرجع معظم الفضل فيما اشتملت عليه معاهدة كوتاهية من المزايا إلى خطة إبراهيم ، الذي جعل مصير الآستانة معلقاً في كفة الميزان ، والذي أطار قلب السلطان وأذله لتابعه . ولكن هذا الصالح لم يكن هو الصالح الخلق بهذا النصر المبين ، بل كان صلحاً مزعزعا واهى الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات »^(٢) .

ولكن الثناء الذي يغدقه على إبراهيم هذا الكاتب المصري الممتاز ، لا يعجب المسيو أنمازى پوليتس Athanase Politis الدبلوماسى الإغريقى العظيم ،

(١) بوالسكت تأليف دون ص ٤٩ من المقدمة .

(٢) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٢٤٩ .

والمؤرخ الذى أخذت شهرته تطبق الآفاق . ذلك بأن المسيو بوليتس يرى أن إبراهيم قد جاوز حدود مقدرته ، وأظهر خطل رأيه حين أعطى المسألة صبغة دولية ؛ وقد كان مستطاعاً أن تبقى مسألة عثمانية داخلية محضة . وقد صدر المسيو بوليتس كتابه « النزاع بين تركيا ومصر من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤١ » بمقدمة قيمة ، تقع فى نحو مائة صفحة ، لخص فيها تاريخ مصر منذ أن جاءها محمد على إلى آخر حكمه تلخيصاً مقطوع النظير ، ومما جاء فيها :

« ولوبقى النزاع بين السلطان وتابعه القوى محصوراً فى مسألة امتلاك الشام ، لبقيت له صبغته القومية المحضة . ذلك بأنه نزاع لا تتأثر به المصالح الكبرى لأية دولة من الدول ؛ ولهذا لم تكن إحداهن لتتدخل فيه ، لأنه نزاع داخلى مجرد من كل صبغة دولية .

« فلو أن محمداً علياً لم يتعد حدود الشام لكان من المحتمل جداً أن لا تتدخل الدول فى الأمر ، وأن يمنحه الباب العالى حق إدارتها عاجلاً أو آجلاً »^(١) ؛ ويقول أيضاً :

« يعجبنا من إبراهيم جده وصدق عزيمته ، وهاتان صفتان من خير الصفات وألزمها فى إدارة الحروب ؛ ولكننا نظان أن الحكمة السياسية كانت تقضى عليه بأن يبذل كل جهده ليمنع تدخل الدول فى الأمر مهما كلفه ذلك . وليس ثمة شك فى أن زحفه على الآستانة كان لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة »^(٢) .

وقصارى القول أن إبراهيم قد اشتهر ببطشه وشجاعته ، كما اشتهر محمد على بدهائه وسعة حيلته . لكن بوالكنت يفضل الدهاء وسعة الحيلة

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٦ من المقدمة .

(٢) المصدر عينه ص ١٩ من المقدمة .

على الشجاعة وقوة البطش ، وقد كتب في ذلك يقول :

« لو كان إبراهيم في مكان محمد على لشككنا في قدرته على إنجاز ما أنجزه أبوه ؛ ذلك بأن الله لم يهبه تلك العبقرية التي لا بد منها لإنشاء الدول الكبيرة ، وإن وهبه الصفات اللازمة لتثبيت العروش وتقوية دعائمها »^(١) وسنكتفي بهذا القدر فلا نزع بأنفسنا في هذا الجدل طويلا .

ومهما تكن مقدرة إبراهيم أو عجزه فإنه كان يعرف كما يعرف غيره من الناس أن معاهدة كوتاهية ليست إلا هدية لا أكثر ولا أقل . ولكنه مع هذا شرع يحكم بلاد الشام على أنها بلاد قد ضمت نهائيا إلى مصر ، لا على أنها بلاد محتلة ؛ يدل على ذلك ما كتبه نائب القنصل البريطاني في يافا إلى القنصل العام في ١٦ فبراير سنة ١٨٣٤ يقول : « إن موقف الحكومة من الأهالي هو موقف المحب لهم المشفق عليهم » ؛ والرسالة مكتوبة بالفرنسية ، وقد استعمل فيها هذين اللفظين *doux et humain*^(٢) ، وكذلك كانت التقارير الفرنسية التي بعث بها بوالسكنت تشتمل على هذا المعنى بعينه فهو يؤكده أن :

« إبراهيم عند ما دخل الشام أعلن في كل مكان مبدأ الحرية والمساواة الدينية ، ونشر المنادين في الطرقات يبالغون الناس أن العدل سيشتاهم كلهم على السواء ، لا فرق بين دين ودين ، وأن من يظلم مسيحيا سيحل به من العقاب ما يحل بمن يظلم مسلماً »^(٣) .

كذلك أبلغ بوالسكنت وزارة الخارجية الفرنسية أن السياسة التي اتبعها إبراهيم هي أن يحكم البلاد عن طريق ولاية الأمور المحليين . وسنرجي الكلام

(١) بوالسكنت تأليف دون ص ٢٤٧ .

(٢) صور السجلات الرسمية الخ سنة ١٨٣٤ وثيقة رقم ١

(٣) بوالسكنت تأليف دون ص ٢٠٥ .

على ما صادفته هذه الجهود من النجاح ، وحسبنا الآن أن نشير إلى قول مندوب وزارة الخارجية الفرنسية أنه مهما قيل عن قسوة القائد المعمرى فى الأيام الخالية : « فإن الحرب الأخيرة قد كشفت عن شىء جديد قلما يراه الناس فى جيش أوربى ، ويندر أن يوجد فى جيش إسلامى . وأقصد بهذا أنه كان يسيطر كل السيطرة على علاقة جيشه بالأهالى للملكيين ، ويحتم على جنده أن يدفعوا ثمن كل ما يأخذونه منهم فى مسيرهم » (١) .

وكان إبراهيم بطبيعته زارعا قبل كل شىء ؛ ولذلك كانت الزراعة محببة إليه ، وقد سعى إلى إدخال أنواع جديدة من النباتات فى بلاد الشام . وأما عن اختلاطه برجاله ، فقد سبق أن نقلنا ما يقوله الدكتور ياتس Dr. Yates فى ذلك المعنى ؛ ونزيد عليه هنا قول بوالسكنت بصريح العبارة إنه كان يطبق على جنوده المبدأ الأوربى الذى يحرم على الضباط أن يعاقبوا رجالهم من تلقاء أنفسهم ، غير خاضعين فى ذلك إلى قانون . ولكن بوالسكنت النبيل ابن النبيل لم يكن يستحسن كل الاستحسان مبادئ إبراهيم الديمقراطية لأنه يقول :

« وكان إبراهيم كثير الاختلاط برجاله ، يعيش معهم ويلاعب معهم ويثنى على الأمة التى أحببتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحمون به من ضباطهم . وبلغ من أمرهم أنهم كانوا يرفضون تنفيذ أوامره ، ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم إلى إبراهيم » (٢) .

لكن هذا القول يكذبه تاريخ إبراهيم . فليس يستطيع إنسان أن يقود جنوده من نصر إلى نصر ، ويكتسح أعداءه أمامه كما اكتسحهم إبراهيم ، إذا

(١) المصدر عينه ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر عينه ص ٢٣٩ .

لم يكن شديد الحرص على النظام . وإنما الذى أنطق به السكنت بهذا القول هو أنه من آل بربون ، وأن دم آل بربون يجرى فى عروقه ؛ وقد اضطر إلى اعتزال الخدمة فى وزارة الخارجية الفرنسية ، لأنه أبى أن يعمل تحت سلطان الجمهورية الثانية ؛ وبلغ من أمره أنه كان يعارض فى رفع لوى فليب إلى العرش ، لأن طباع هذا الملك « الشعبية » لا تنفق مع ميوله الأتوقراطية ^(١) .

إن النجاح الذى لقيه إبراهيم فى قيادته سيقى خالداً مدى الدهر ^(٢) . أما ما قام به من الأعمال المدنية ، فنستطيع معرفته من وثيقة رسمية مؤرخة ١٥ أبريل سنة ١٨٣٤ عنوانها « مذكرات عن أحوال الشام التجارية والزراعية والسياسية ، مرفوعة إلى القنصلية البريطانية العامة » وهى وثيقة مطولة نقتس منها ما يأتى :
لقد كان كبار الأتراك فى الشام فى العهد البائد يحتمون بحماية ذلك العهد ، ويسومون الأهالى ضروب العسف والإرهاق ؛ أما الآن فقد فقدوا جميع ما كانوا يتمتعون به من السلطة ؛ ولذلك تراهم يحقدون على إبراهيم باشا ، لأنه لا يسمح لهم أن يظلموا أهل البلاد ، ولأنه قد حرّمهم فوق ذلك كثيراً من الامتيازات الظالمة التى كانوا يتمتعون بها من قبل .

« على أن الباشا مع ذلك قد رتب معاشاً لكل من حرم منصبه منهم » .
واختتم هذه المذكرات بهذا الوصف العام للحالة القائمة وقتئذ وهو :
« ويستدل من هذا على أنه لا يوجد الآن سبب للشكوى من حكومة

(١) المصدر عينه ص ٣٧ من المقدمة .

(٢) فى الأصل الإنجليزى « يمثله قول سرفنتيز » وقد راجعنا أقوال سرفنتيز كلها فوجدنا أكثرها انطباقاً على هذا المعنى قوله المأثور الذى أثبتناه هنا وهو وارد فى الجزء الثانى من دن كيشوت . وسرفنتيز Cervantes جندى وكاتب قصصى وروائى وشاعر خلد اسمه كتاب دن كيشوت المشهور . وقد اشترك فى موقعة ليبانتو البحرية الشهيرة التى هزمت فيها أوربا الأتراك وجرح فى هذه الموقعة .

الشام ، وإن كان يوجد من غير شك طائفتان من الناس لا ترضيان عن إبراهيم باشا : أولاهما تتكون من أولئك الذين كانوا في عهد الباشا السابق يتمتعون بالمنصب أو السلطان ، وهم قليلون ويسكن معظمهم في المدن الكبيرة ؛ والطائفة الأخرى قوامها الفئة المتعطلة المشاغبة ، ويوجد غالب أفرادها في دمشق وحلب . وفيما عدا هاتين الطائفتين فبلغ علمي أن الأهالي راضون بوجه عام .

« وقد أخذت الحكومة تفكر في إنشاء الطرق الجديدة ، وفي خير الوسائل المؤدية إلى تسهيل سبل الاتصال في بلاد الشام ؛ واستخدم الباشا بعض رجال التعدين من الإنجليز ، ليعرف هل في البلاد مناجم للفحم أو المعادن الأخرى »^(١) .

وكتب رقيب آخر إلى القنصل البريطاني العام يقول :

« إن مصالح هذا القطر كلها هي موضع عناية حكومة إبراهيم باشا . ولقد جلست إليه أحدثه بضع ساعات ، فوجدته ممتعاً كأبيه بل أكثر منه ؛ ووجدته صريحاً نزيهاً حازماً وأشد من أبيه رغبة في العمل لخير هذا الشعب . ووجدت جنوده في أحسن حال من النظام ، وتبلغ عدتهم ٢٥ ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان معهم اثنتا عشرة بطارية من مدافع الميدان ؛ وائتمن بها بونهم وإن كان سلوكهم طيباً بوجه عام »^(٢) .

وقد لا يكون من الفضول أن نضيف إلى هذا الوصف العام لحكومة إبراهيم شيئاً عن مظهره الخارجي في ذلك الوقت . لقد قال بعض الكتاب إنه لم يكن يعنى بملبسه ولا بمظهره ، ولكن هذا القول لا يتفق مع ما كتبه عنه بوالسكت . فقد قال إن أسنان إبراهيم كانت على درجة كبيرة من الجمال . وإذا عني موظف

(١) صور السجلات الخ سنة ١٨٣٤ وثيقة رقم ٢٦ .

(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ٢٤ .

دبلوماسى فرنسى فى سنة ١٨٣٤ بإثبات هذه الصفة فى تقرير رسمى ، ولم يقل شيئاً عن ملابس إبراهيم ، فإنه لا يفهم من قوله أنه يؤكد جمال أسنانه فحسب ، بل أنه يقول للقارى 'إن هيئته لم يكن يبدو عليها شيء من الشذوذ . وليس أدل على أن بوالكنت كان قوى الملاحظة من قوله : « إن إبراهيم كان قصير الذراعين جدا » (١) .

وقد يكون مما يلد للقارى ' معرفته فى هذا القرن العشرين ، الذى تقف فيه البنات موقف الرقيات على الكتب التى يسمح بقراءتها لأمهاتهن ، والذى محبت فيه كلمة « الاحترام » من قاموس الشبان ، نقول قد يكون مما يلد للقارى ' معرفته أن إبراهيم كان شديد التأدب فى حضرة أبيه ؛ لا يسمح لنفسه بأن يضطجع أمامه ولا يفكر فى التدخين فى مجلسه (٢) . ويؤكد بوالكنت أن أهل الأناضول كانوا على بكرة أبيهم يحبون أن يروا هذا الابن البار يجلس على سرير الملك فى الآستانة . وكان إبراهيم يعرف ذلك منهم ، ولكنه لم يكن يعير حركتهم أقل اهتمام . وكل الذى كان يريد أن يجنيه من حبهم له ، أن يزيده قدرة على خدمة أبيه . ومن أقواله الماثورة « إن الإرادة التى تحكم فى القاهرة يجب أن تحكم أيضاً فى الآستانة » (٣) .

وبينما كان إبراهيم يجاهد فى إحلال النظام محل الفوضى والاضطراب ، كان الروس يكيدون له . وقد بدمووا كيدهم ولما يحف المداد الذى كتبت به معاهدة كوتاهية . وليس أدل على ذلك من أن السفير البريطانى فى الآستانة اضطر إلى إرسال مذكرة شخصية إلى الكولونل كامبل ، يصف فيها الحال التى نشأت من

(١) دون فى كتابه « بوالكنت » ص ٢٤٤ .

(٢) المصدر عينه ص ٢٤٧ .

(٣) المصدر عينه ص ٢٩٢ .

هذا القدر . وقد كتب على هذا الخطاب كلمة « خاص » وهو بخط لورد پنسنبي Lord Pansonby نفسه ، ويشمل سبع صحائف من أوراق المذكرات ؛ ويستطيع الإنسان أن يتبين أهميته من كلمة « خاص » المكتوبة عليه ، ومن هذه الجملة التي جاءت في أوله :

« سأبلغك أمراً ، واسكنني أرجوك ، وألح عليك في الرجاء ، أن تكون فيما يتطلبه منك من العمل حذراً غاية الحذر ، نافذ البصيرة ما أمكنك ، وأن تذكر أولاً أن ما أخبرك به قد يكون خاطئاً ، وأن لا يعزب عنك ثانياً أنه إذا كان صواباً ، فإن من أوجب الواجبات عليك أن لا تسلك في عملك طريقاً يدني أعداءنا من مقصدهم » .

وبعد أن أيقظ بهذه الطريقة في القنصل العام رغبته الشديدة في معرفة ما سيقصه عليه قال :

« إن الذي أقصه عليك هو أن لدى من الأسباب ما يحملني على الظن بأن الروس يحرضون السلطان أو يشجعونه على التفكير في مهاجمة محمد علي ، كما أخبرتك من قبل . ولا يخفى عليك أن السلطان عاجز كل العجز عن مهاجمة محمد علي ، إلا إذا جاءه العون من قبل روسيا ؛ ولذلك لا يبعد أن تكون الخطة التي رسمتها بطرسبرج ، هي أن تحرض السلطان على مهاجمته في هذا الوقت ، لأن شروط المعاهدة الجديدة تخول للروسيين أن يساعده على جميع أعدائه » ^(١) .

(١) صور السجلات الخ سنة ١٨٣٣ الوثيقة رقم ٩٨ .